(١٥)

أثبات الصفات لله عز وجل

الحمد لله رب العامين والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين اللهم نسألك أن توفق شيخنا وان تعينه وأن تغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين.

وروى الأثرم في " السنة " وأبو عبد الله بن بطة في " الإبانة " وأبو عمرو الطلمنكي وغيرهم بإسناد صحيح عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون – وهو أحد " أئمة المدينة الثلاثة " الذين هم مالك بن أنس وابن الماجشون وابن أبي ذئب – وقد سئل عما جحدت به الجهمية

سيقول الآن نصًا طويلًا لابن الماجشون رحمه الله وابن الماجشون توفي سنة ١٦٤ من الهجرة.

" أما بعد : فقد فهمت ما سألت فيما تتايعت الجهمية ومن خلفها في صفة " الرب العظيم " الذي فاقت عظمته الوصف والتدبر وكلت الألسن عن تفسير صفته وانحصرت العقول دون معرفة قدرته وردت عظمته العقول فلم تجد مساغا فرجعت خاسئة وهي حسيرة . وإنما أمروا بالنظر والتفكر فيما خلق بالتقدير وإنما يقال " كيف " لمن لم يكن مرة ثم كان . فأما الذي لا يحول ولا يزول ولم يزل وليس له مثل فإنه لا يعلم كيف هو إلا هو . وكيف يعرف قدر من لم يبدأ ومن لا يموت ولا يبلى ؟ وكيف يكون لصفة شيء منه حد أو منتهى – يعرفه عارف أو يحد قدره واصف ؟ – على أنه الحق المبين لا حق أحق منه ولا شيء أبين منه . الدليل على عجز العقول عن تحقيق صفته عجزها عن تحقيق صفة أصغر خلقه لا تكاد تراه صغرا يجول ويزول ولا يرى له سمع ولا بصر ؛ لما يتقلب به ويحتال من عقله أعضل بك وأخفى عليك مما ظهر من سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين وخالقهم وسيد السادة وربهم { ليس كمثله شيء وهو السميع البصير } في هذه القطعة واضح أن ابن الماجشون رحمه الله كان يجيب على سؤال ورده فقد قال: (**أما بعد : فقد فهمت ما سألت فيما تتايعت الجهمية**) و(**تتايعت**) بمعنى تتابعت، التتايع بمعنى التتابع يعني أنهم تواتروا على تكرار هذه المعاني من تحريف الصفات (**ومن خلفها في صفة " الرب العظيم "**) إشارة إلى أن الجهمية ومضادوهم من الممثلة كلهم ضلوا في هذا الباب، فقال كلامًا في تعظيم الرب سبحانه وتعالى وأنه لا يقاس بخلقه ولا تضرب له الأمثال وهذا مهم جدًا أن يُعظم الرب في القلوب وأن يُنزه عن مماثلة المخلوقين فقال هذا الكلام الحسن الجميل في تعظيم الرب سبحانه وتعالى.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ [1]

اعرف – رحمك الله – غناك عن تكلف صفة ما لم يصف الرب من نفسه بعجزك عن معرفة قدر ما وصف منها ؛ إذا لم تعرف قدر ما وصف فما تكلفك علم ما لم يصف ؟ هل تستدل بذلك على شيء من طاعته أو تزدجر به عن شيء من معصيته ؟

هذه الجملة منه رحمه الله جملة تربوية وعظية منهجية يقول لهذا المخاطب يقول: (**اعرف**) ينهاه عن التكلف يعني عن افتتاح شيء لم يأتي به أثارة من علم كأن هذا السائل سأل عن أمورٍ لم يرد بها كتابٌ ولا سُنة وأراد أن يستطلع معناها فزجره عن ذلك وقال كف عن التعرف وتكلف معرفة ما لم يخبر الله به واعتبر بقصور علمك فيما أخبر به سبحانه كيف أنك لا تدرك حقيقته ولا كيفيته فكيف بشيء لم يرد فيه نص؟! يعني إذا كان الله تعالى قد أخبرنا عن ذاته وأسمائه وصفاته بنصوص ومع ذلك لا ندرك منها إلا اللفظ والمعنى ولا ندرك الكيفية فكيف بشيء لم يخبر به عن نفسه؟ فهو يزجره عن التكلف والتكلف مذموم يرعاكم الله، يقول الله تعالى للنبي: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[ص:٨٦] وقد ذكرنا لكم مرارًا أن ما لم يرد به نص من كتابٍ ولا سُنة فالواجب التوقف في لفظه والاستفسار عن معناه ولا نتكلف علم ما لم يرد ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[الإسراء:٣٦].

فأما الذي جحد ما وصف الرب من نفسه تعمقا وتكلفا فقد { استهوته الشياطين في الأرض حيران } فصار يستدل – بزعمه – على جحد ما وصف الرب وسمى من نفسه بأن قال : لا بد إن كان له كذا من أن يكون له كذا فعمى عن البين بالخفي فجحد ما سمى الرب من نفسه لصمت الرب عما لم يسم منها فلم يزل يملي له الشيطان حتى جحد قول الله عز وجل : { وجوه يومئذ ناضرة } { إلى ربها ناظرة } فقال : لا يراه أحد يوم القيامة فجحد والله أفضل كرامة الله التي أكرم بها أولياءه يوم القيامة من النظر إلى وجهه ونضرته إياهم { في مقعد صدق عند مليك مقتدر } قد قضى أنهم لا يموتون فهم بالنظر إليه ينضرون .

إلى أن قال : – وإنما جحد رؤية الله يوم القيامة إقامة للحجة الضالة المضلة ؛ لأنه قد عرف أنه إذا تجلى لهم يوم القيامة رأوا منه ما كانوا به قبل ذلك مؤمنين وكان له جاحدا .

هذه القطعة في الرد على المعطلة يعني كما رد على المتكلفين من أهل التشبيه والتمثيل رده ها هنا على المعطلة فقد قال: (**فأما الذي جحد ما وصف الرب من نفسه تعمقا وتكلفا فقد { استهوته الشياطين في الأرض حيران }**) وكيف رد ما أخبر الله تعالى به عن نفسه؟ بطريقة اللوازم المزعومة يلزم من كذا وكذا ويلزم أن يكون له كذا وكذا وضرب مثالًا بإثبات الرؤية فالله تعالى قد أخبر أنه يُرى يوم القيامة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة:٢٢-٢٣] فهذا المعطل قال: يلزم أن يكون في جهة ويلزم أن يكون جسمًا .. وأخذ يأتي باللوازم فعمي عن البين بالخفي كما قال ابن الماجشون يعني شيء بيّن صريح واضح بناطق الكتاب وصحيح السُنة يشوش

عليه بمثل هذه اللوازم والالقاءات الشيطانية الضالة، ولا شك أنه قد أنكر أعظم ما يرجوه المؤمنون ويتشوفون إليه وهو النظر إلى وجه الله الكريم.

{ وقال المسلمون : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب . قالوا : لا . قال : فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا . قال : فإنكم ترون ربكم يومئذ كذلك } .

إذًا النصوص السابقة صريحة بينة في إثبات رؤية الباري سبحانه وتعالى، لا يقع في خلد مؤمن من الصحابة والتابعين إلى يوم القيامة إلا المعنى المباشر وهو أن المؤمنين يرون ربهم عيانًا بأبصارهم يوم القيامة وأما المتكلفون من أهل التعطيل فقد شقوا بالقرآن العظيم وشقوا بسُنة سيد المرسلين ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[طه:٢] أما هم فشقوا وطفقوا يبحثون عن التأويلات المتكلفة والأقاويل المتعسفة لرد هذا الظاهر البيّن.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم { لا تمتلئ النار حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول قط قط وينزوي بعضها إلى بعض } { وقال لثابت بن قيس : لقد ضحك الله مما فعلت بضيفك البارحة } { وقال فيما بلغنا إن الله تعالى ليضحك من أزلكم وقنوطكم وسرعة إجابتكم فقال له رجل من العرب إن ربنا ليضحك ؟ قال : نعم قال لا نعدم من رب يضحك خيرا } . إلى أشباه لهذا مما لا نحصيه .

أما الأحاديث السابقة لا تمتلئ النار وحديث بقد ضحك الله مما فعلت بضيفك فهي صحيحة مروية في البخاري وغيره، وأما الأخير فمختلف فيه وهو حديث لقيط بن عامر بن المنتفق فقد ضعفه الألباني رحمه الله وجوّد إسناده الإمام ابن القيم رحمه الله قال: إسناده جيد. وهو من رواية وكيع بن عُدس.

وقال تعالى : { وهو السميع البصير } { واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا } وقال تعالى : { ولتصنع على عيني } وقال تعالى : { ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي } وقال تعالى : { والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون } .

أرأيتم يا إخوة كيف أن أئمة السلف حشدوا النصوص الدالة على إثبات صفات الله سواءً كانت صفات ذاتية معنوية أو كانت صفات فعلية أو كانت صفات خبرية سيسوقون الكلام فيها سوقًا واحدًا ويعاملونها بمنهجية واحدة من الإقرار والإمرار والقبول وعدم التعرض لها بشيء من التأويلات الفاسدة أو عدم التطويح إلى التشبيه بل يثبتونها على المعنى اللائق بالله تعالى دون تمثيل ودون تعطيل.

فوالله ما دلهم على عظم ما وصفه من نفسه وما تحيط به قبضته : إلا صغر نظيرها منهم عندهم إن ذلك الذي ألقي في روعهم وخلق على معرفة قلوبهم فما وصف الله من نفسه وسماه على لسان رسوله صلى الله

عليه وسلم سميناه كما سماه ولم نتكلف منه صفة ما سواه – لا هذا ولا هذا – لا نجحد ما وصف ولا نتكلف معرفة ما لم يصف .

هذا معنى دقيق لمن تنبه له **وهو أن السلف رحمهم الله يثبتون الاشتراك في المعنى** ويجعلون لله تعالى المثل الأعلى، تأملوا .. قال: (**فوالله**) يُقسم رحمه الله (**ما دلهم على عظم ما وصفه من نفسه وما تحيط به قبضته : إلا صغر نظيرها منهم عندهم**) إذًا ما قصده بنظيرها؟ يعني ما يشترك معها في أصل المعنى فالله سميع والعبد سميع، والله بصير والعبد بصير، والله قدير والعبد قدير، والله عليم والعبد عليم سمى نفسه عبدًا بهذا لكن ما دلهم على عِظم ما ينبغي لله إلا صغر ما عندهم بأنفسهم، فهناك اشتراك في أصل المعنى للمخلوق منه المثل الأدنى وللخالق منه المثل الأعلى فهذا دليل على أن السلف يثبتون المعاني لا يفوضون ولا يدعون المجهولات والطلاسم والألغاز والأحاجي في نصوص الصفات بل يثبتون أصل المعنى فيستدلون بالمثل الأدنى اللائق بهم على المثل الأعلى اللائق بالله عز وجل، هذا نص عزيز في إثباتهم لأصل المعنى.

اعلم – رحمك الله – أن العصمة في الدين أن تنتهي في الدين حيث انتهى بك ولا تجاوز ما قد حد لك فإن من قوام الدين معرفة المعروف وإنكار المنكر فما بسطت عليه المعرفة وسكنت إليه الأفئدة وذكر أصله في الكتاب والسنة وتوارثت علمه الأمة : فلا تخافن في ذكره وصفته من ربك ما وصف من نفسه عيبا ؛ ولا تتكلفن بما وصف لك من ذلك قدرا .

هذه الثقة العلمية ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾[محمد:١٤] فعلًا يا إخوة مَن كان على بينة من ربه ينطلق لسانه بالبيان وبلغة واضحة فهو رحمه الله عنده الأمر واضح فالعصمة في الدين أن تنتهي في الدين حيث انتهى بك ولا تجاوز ما قد حُدّ لك، فلا ينعقل لسانك أن تقول ما قال الله وما قاله رسوله لا تدع ذلك الاستشناع مستشنع أو الاستغراب مستغرب أبدًا قل ما قال الله قل ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تباري فإن الله أعلم بنفسه وأعلم بغيره ونبيه صلى الله عليه وسلم أعلم بربه فلا تتردد في إثبات ما أثبت الرب لنفسه أو أثبته له نبيه صلى الله عليه وسلم، وفي الوقت ذاته لا تتجاوز بأن تأتي بشيء من كيسك ومن بنات أفكارك تحمل عليه كلام الله أو كلام رسوله دائمًا السُنة بين الغالي والجافي اعتصم بالنص تسلم هذا مؤدى كلامه رحمه الله.

وما أنكرته نفسك ولم تجد ذكره في كتاب ربك ولا في حديث عن نبيك – من ذكر صفة ربك – فلا تكلفن علمه بعقلك ؛ ولا تصفه بلسانك ؛ واصمت عنه كما صمت الرب عنه من نفسه

تكرر هذا اللفظ لفظ الصمت والتعبير عن الصمت في حق الرب وهذا يشبه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "وسكت عن أشياء" السكوت والصمت بمعنى.

فإن تكلفك معرفة ما لم يصف من نفسه مثل إنكار ما وصف منها ؛ فكما أعظمت ما جحده الجاحدون مما وصف من نفسه : فكذلك أعظم تكلف ما وصف الواصفون مما لم يصف منها . فقد – والله – عز المسلمون ؛ الذين يعرفون المعروف وبهم يعرف ؛ وينكرون المنكر وبإنكارهم ينكر ؛ يسمعون ما وصف الله به نفسه من هذا في كتابه وما بلغهم مثله عن نبيه فما مرض من ذكر هذا وتسميته قلب مسلم ولا تكلف صفة قدره ولا تسمية غيره من الرب مؤمن .

وما ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سماه من صفة ربه فهو بمنزلة ما سمي وما وصف الرب تعالى من نفسه . والراسخون في العلم – الواقفون حيث انتهى علمهم الواصفون لربهم بما وصف من نفسه التاركون لما ترك من ذكرها – لا ينكرون صفة ما سمي منها جحدا ولا يتكلفون وصفه بما لم يسم تعمقا ؛ لأن الحق ترك ما ترك وتسمية ما سمى ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا وهب الله لنا ولكم حكما وألحقنا بالصالحين " . وهذا كله كلام ابن الماجشون الإمام " فتدبره وانظر كيف أثبت الصفات ونفى علم الكيفية – موافقا لغيره من الأئمة – وكيف أنكر على من نفى الصفات بأنه يلزمهم من إثباتها كذا وكذا كما تقوله الجهمية – أنه يلزم أن يكون جسما أو عرضا فيكون محدثا .

هذا نص مفيد كما قلت ونص عزيز لإمام متقدم وهو ابن الماجشون وقد ذكر عندي في التخريج أنه أخرجه الذهبي في العلو وقال الذهبي: رواه أبو بكر بن الأثرم ثم قال: كان عبد العزيز من بحور العلم بالحجاز. يعني ابن الماجشون، نوديَّ مرة بالمدينة بأمر المنصور لا يفتي الناس إلا مالك وعبد العزيز ابن الماجشون رحمه الله رحمة واسعة، وفعلًا هذا النص وهذا الكتاب منه يتمحور حول إثبات ما أثبت الرب لنفسه وكذلك ما أثبته له نبيه صلى الله عليه وسلم فإن ما أثبت الرب لنفسه مثل ما أثبت النبي لربه مثل ما أثبت الرب لنفسه كما في جملته الأخيرة، وأيضًا النهي عن التكلف والتكلف يكون على صورتين: إما بالمغالاة في التشبيه حتى يقع في التمثيل، وإما المغالاة في التنزيه وتطلُب المعاني المجازية المزعومة كل هذا تكلّفٌ نهى عنه رحمه الله، فكان جوابه ردًا على أهل التمثيل وعلى أهل التعطيل وبه يتبيّن وضوح الصورة عند اَلْسَلَف الصالح رحمهم الله، وأن طريقتهم هي الإقرار والإمرار والتخلص من محذورين متقابلين وهما:

١- محذور المغالاة في الإثبات إلى حد التمثيل. وقد زجر ابن المَاجِشُّون من وقع في نفسه شيء من ذلك بأن يتعظ بعدم قدرته على عدم درك ما بين الله تعالى لنفسه من الأسماء والصفات وعدم الإحاطة بكيفياتها بعجزه عما هو من وراء ذلك.

٢- والمحذور الثاني هو الذين يغالون في التنزيه حتى وقعوا في التعطيل ونفوا عن الله تعالى ما أثبت لنفسه.

فَذَمَّ هؤلاء وهؤلاء. وضرب أمثلة على الإثبات كمسألة الرؤية. وساق الآيات الدالة على الإثبات:

١- منها ما يتعلق بآيات صفات ذاتية كالعلم والقدرة.

٢- ومنها ما يتعلق بصفات خبرية كالعينين واليدين والوجه.

٣- ومنها ما يتعلق بصفات فعلية كالاستواء و النزول.

وساق القول فيها سوقًا واحدًا. فهذه هي طريقة السلف رحمهم الله متقدميهم ومتأخريهم.